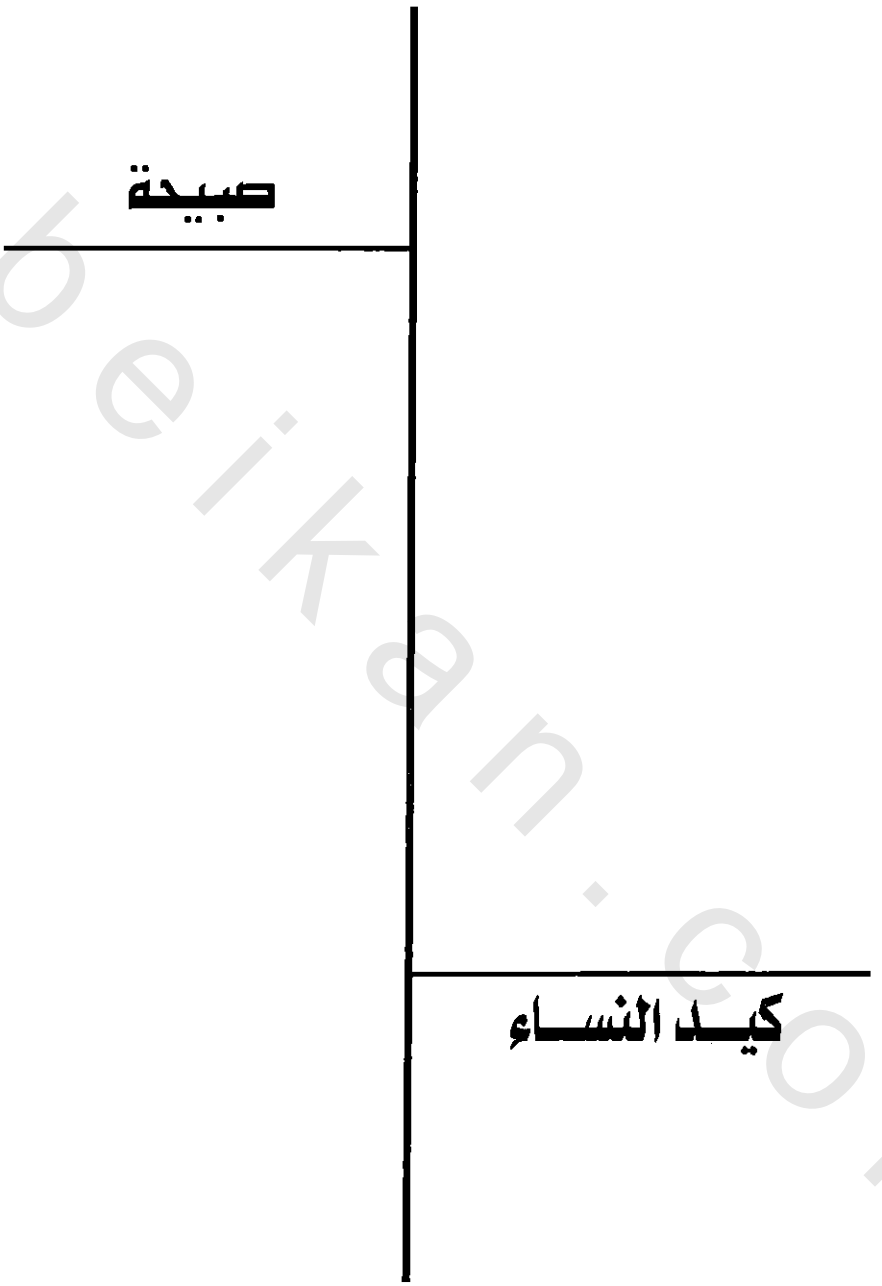

obeikan.com

obeikan.com

صبيحة

جارية بشكنسية نافارية مسيحية لم تدخل الإسلام إلا بعد أن أصبحت إحدى الجوارى الأسيرات في قصر الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الناصر الذي أعجب بجمالها وذكائها وفطنتها ، فأهداها إلى ابنه وولى عهده الحكم "المستنصر بالله: لكنه لم يكن يهتم بزيارة جناح الحريم ، وكان طوال فترة خلافة أبيه مشغولا بخوض غمار الحروب ضد الإفرنج ، وحتى بعد أن انتهى من الحروب انشغل مع أبيه في إدارة دفة الحكم ، ثم مات أبيه وجلس هو على كرسى العرش وهو في الثامنة والأربعين ، رجل زاهد في الحكم ولم تأسره شهوته إليه ، بل كان مشغوفا بالقراءة ونهل العلم ، فكان يقضى معظم وقته في المكتبة الغامرة العامرة بالكتب القيمة وبدلا من مجالس رجال الدولة لمتابعة شئون الحكم كان يجالس أصفياءه من العلماء .

على الجانب الآخر كانت صبيحة تطلق العنان لخيل أحلام يقظتها ، فهى إحدى حريم الحكم ولا ينقصها شيئا لتكون مقربة منه وأسر قلبه ، فهى جميلة وذكية ومثقفة وزوجته لم تنجب له ولدا يكون وليا للعهد والخليفة مهتم بهذا الأمر ، ولكن كيف يمكن لها تحقيق ذلك الحلم .

رأت صبيحة أن المكتبة هي المكان المناسب للفت انتباه الأمير وربما أسر قلبه لأنه يقضى معظم وقته بالمكتبة ولاشك أنه في المكتبة سيكون في أفضل حالاته النفسية ، وذهبت إلى المكتبة لتقرأ وكانت تختار بدقة المكان الذي تجلس فيه حتى تقع عين الخليفة عليها ، وذات يوم كانت بالمكتبة حين دخل الخليفة ومعه حاجبه جعفر المصحفى ومع قاضيه ابن السليم ، ونهضت "صبيحة" في حرج شديد "مفتعل طبعا" متظاهرة بمغادرة القاعة للفت انتباه الأمير ، وبالفعل حدث ما أرادت فقد استوقفها الخليفة وطلب منها الجلوس ومواصلة القراءة ثم طلب منها

مشاركتهم جلستهم وسألها عن الكتاب الذي كانت تقرأ فيه ، فأخبرته أنه "حقوق المرأة في الإسلام".

فهز القاضى رأسه بانبهار من ذكائها وازداد "الحكم" إعجابا بها وسألها عمن تكون!! فأخبرته أنها جارية من جواريه .

فقال مستغربا:

- أنت من نساء القصر؟!!

قالت: نعم . . إحدى جواريك يا مولاى .

فنظر "الحكم" إليها مليا في إعجاب شديد ثم قال:

- أنت أحلى من الفجر وأندى من البكور . . أنت": صبح".

وهكذا نجحت صبيحة في الوصول إلى هدفها وأصبحت أقرب إلى الخليفة من أى امرأة أخرى ، ويتحقق لها بقية الحلم بإنجابها ولى العهد "عبد الرحمن" ثم "هشام" وإن كان لم يجعلها زوجة رسمية له إلا أنه أسماها أميرة قرطبة وأم ولى العهد ، ومات عبد الرحمن الابن الأكبر ، بينما "هشام" لم يزل طفلا ، وهذا ما جعل أخوه المغيرة يطمع أن يعلنه الخليفة وليا للعهد ، لكنها لم تهدأ وقاومت هذا الأمر حتى نجحت في أن تجعل الخليفة يعلن "هشام" الطفل وليا للعهد .

غضب "المغيرة" وأنصاره على الخليفة وزوجته وأخذوا ينثرون الشائعات حولها في كل مكان بقرطبة وكانت كلما ازدادت الشائعات ازدادت صلتها بالخليفة حتى أصبح يحقق لها كل رغباتها ، بل أشركها في إدارة أمور الحكم وعين لها كاتبا خاصا ومربيا لولدها ، ومشرفا على شئون وإدارة أمواله وهو محمد بن أبى عامر ، وكان شابا صغيرا لم يبلغ العشرين لكنه عرف كيف يوثق علاقته بالأميرة ويرد عنها وعن ابنها نزوات الطامعين كالمصحفى والمغيرة .

كان ابن عامر كاتب رسائل على باب القصر يكتب رسائل غلمانه حتى ذاع صيته وبلغ صبيحة فأرسلت إليه تستكتبه بعض الرسائل وحين طلب الخليفة من وزيره "المصحفى" كاتبا "لصبيحة" كان هو أحد المرشحين واستطاع أن يجتاز الامتحان لتختاره كاتبا لها .

أحس "المصحفى" أن الفتى الذي رشحه أصبح عينا عليه وأن أمورا كثيرة بدأت تتكشف أمامها وهو ما يهدد بفقده لموقعه ليحل الفتى محله خاصة أن "صبيحة" ترعاه وتدلله وتذكره بالخير عند الخليفة حتى أصبح موضع ثقته هو أيضا ، وكان هو في المقابل لا يترك فرصة إلا يعبر فيها عن شكره ويجلس إليها بالساعات يحدثها دون أن يشك الخليفة في شيء .

أخذت الشائعات تنتشر وإن كان الفتى يلاحظ أن الأميرة تبدى ميلا إليه وقد أصبح بفضلها ناظر خزينة الدولة (وزير مالية) ثم عين للنظر في أمانة السكة ، ويبدو أن ذلك ما جعله يتأكد من حب الأميرة له علاوة على أنها تكون أمامه مسلوبة الإرادة .

كان المصحفى يلاحظ ذلك وفى نفس الوقت يخشى على مكانته في وجود ذلك الشاب ، فقرر أن يضرب ضربته ليسقط الثقة بابن عامر ويزيحه عن طريقه وأخذ يفكر في الطريقة التي يفعل بها ذلك ، ويأمن غضب الأميرة وعداوتها ، دس إلى الخليفة من يخبره بتبذير ابن أبى عامر من أموال بيت المال ، وما يقوله الشعب عن نفقاته الباهظة من هذا المال ، وصدق الخليفة هذا الكلام وأرسل لابن أبى عامر وسأله عما يقول الناس من تبديده ما بعهدته من أموال ، ولم يكن ابن أبى عامر يتوقع ذلك ، لكنه تماسك وطلب من الخليفة أن يثبت له عكس ذلك من خلال تقديم كشوف حساب بما لديه من عهدة .

في اليوم التالى ذهب الخليفة والمصحفى إلى بيت المال وقدم ابن أبى

عامر دفاتره وقام الخليفة ووزيره بجرد الخزائن فوجدوا أن ما بها مطابق للمثبت بالدفاتر ، وشعر المصحفى الذي كان متأكدا من وجود العجز بخيبة أمل كبيرة لأنه لم يكن يتوقع أن يستطيع ابن أبى عامر تسوية ذلك العجز في ليلة واحدة ، لكنه لم يتوقع أن تقوم الأميرة بتسديد ذلك العجز .

لم يعد الخليفة قادر على الابتعاد عن ابن أبى عامر المحدث اللبق الأمين الذي يحظى برعاية الأميرة ، وازداد خوف المصحفى بعد نجاة ابن أبى عامر وعدم وقوعه في الفخ الذي دبره له ، وبالتالى فقد أصبح من المؤكد أنه يحظى برعاية الأميرة ، ومن المؤكد أنها ستكون العقبة في طريق إزاحته .

فكر المصحفى في الأمر بشكل مختلف ، فقد رأى أن يكيد للأميرة نفسها من منطلق أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، ويساعده في ذلك حاجب الخليفة وراح يوحى لأبواقه بأن تشيع وجود علاقة شائنة بين الأميرة وكاتبها لوضع حد لعلاقتها به ليتمكن من الخلاص مه .

خشيت الأميرة على سمعتها وخشيت كذلك من غضب الأمير ، فقد دس من يبلغ هذه الشائعات إلى الأميرة دون أن يظهر هو في الصورة حتى التقى وصيفة الأميرة وهمس في أذنيها بأن تقنع الأميرة بضرورة وضع حد لهذه الشائعات التي انتشرت في جميع أنحاء قرطبة ، وتملكت الوصيفة الحيرة في كيفية إبلاغ الأميرة التي لاحظت حيرتها ، فسألتها عن سببها وسر شرودها ، واضطرت الوصيفة بعد ضغط الأميرة عليها للحديث .

لم تُخف الأميرة قلقها واضطرابها واستسلمت للبكاء خوفا من وصول هذه الشائعات للخليفة وما يمكن أن يحدث نتيجة لذلك ، وبالفعل بدأت صبيحة تقلل من لقاء ابن أبى عامر وتتحاشى لقاءه ،

وكانت تلك هي البداية التي أرادها المصحفى ، فانتهز فرصة لقائه بها في أمر من أمور الدولة التي كانت تشارك فيها وسألها عن سر حيرتها وقلقها الذي يبدو عليها ولشدة ضيقها بكت "صبيحة"، بينما راح هو يستدرجها وألمح لها إن كان سبب ضيقها هو تلك الشائعات التي تنتشر في قرطبة فإنى أنصحك بأن تبعدى كاتبك عن قرطبة إلى حين وبسرعة قبل أن يستفحل الأمر .

ردت صبيحة في دهشة: إننى بذلك سوف أذكر الشائعات وأعطيهم اعترافا بأنه ارتكب ما يستحق الإبعاد .

رد المصحفى بدهاء مداريا خبثه وشعوره بالنصر: إنما أحرص على سمعة مولاتى وأن تكون أمامنا فرصة لنفى الشائعات قبل أن تصل إلى الخليفة .

وحقق المصحفى غرضه من المؤامرة وإن كان ابن أبى عامر قد رقى قاضيا أو حاكما على أشبيلية لكنه ابتعد عن مكانه في مصر الخلافة ليعود المصحفى صاحب الكلمة الأولى في قرطبة من جديد .

لم يمض وقت طويل حتى اشتد المرض بالخليفة الذي كان يخشى أن تؤول ولاية العهد إلى أخيه المغيرة دون ولده الصغير هشام ، وانتقال الخلافة إلى المغيرة الذي يعرف أطماعه .

كان الخليفة بعد وفاة ابنه عبد الرحمن قد أعلن صبيحة ملكة على قرطبة ليخفف عنها أحزان فقد ابنها وأقنعته عند مرضه أن يعلن البيعة لابنه هشام ويأخذ عليها تواقيع الأعيان والأشراف والأمراء ، وكان يخشى ألا يوقع على البيعة أمراء وحكام مراكش وإفريقية وبقية الأندلس ، ويعلم في الوقت نفسه أن المصحفى يميل إلى المغيرة ولا يجد من يثق به لإقناع الحكام والأمراء ، فردت عليه صبيحة بثقة:

– لا يقوم بذلك سوى محمد بن أبى عامر ، فهو خير من يقف

وراءك ويرعى ولى عهدك لو صار وزيرا للقصر .

ويبدو أن العرض قد لاقى استحسانا لدى الخليفة فوافقها عليه وطلب منها أن تكتب إليه أن يعود مسرعا إلى قرطبة ، وفور عودته تولى وزارة القصر وتولى بيت المال الذي كان يقوم عليه المصحفى واستطاع بالفعل أن يأخذ موافقة الأمراء والحكام على البيعة لهشام قبل أن يرحل الخليفة إلى الدار الآخرة .

وحتى يكمل ابن أبى عامر خدماته الجليلة للملكة ولابنها الخليفة الصغير قضى بنفسه على المغيرة لتصبح له اليد الطولى في قرطبة من خلال موقعه بالقيام على رعاية الصغير ، ويبدو أن الوضع الجديد قد شجع الملكة أن تبدى ما أخفت زمانا تجاه كاتبها السابق ابن أبى عامر لكنه كان حريصا على عدم الوقوع في حبائلها ، فكان يبتعد قدر الإمكان عن الانفراد بها وأخذ يشغل نفسه بالمعارك ضد الفرنجة والمتمردين من الصقالبة وأنصار المغيرة والمصحفى .

ذات يوم كان ابن أبى عامر عائدا من إحدى معاركه مع الفرنجة منتصرا واستقبلته البلاد استقبال الفاتحين وكان في استقباله بقصر الزهراء رجال البلاط والخليفة المؤيد والملكة (الوصية) التي كانت تسعى لتنبيهه إلى الغرام الذي يشتعل بها قلبها فقالت له:

- والله إن السبب في هذا النصر هو قيادتك الحكيمة وإن المصحفى ليغلبه الحقد عليك ولن يهدأ حتى ينتصر عليك .

فرد ابن أبى عامر ضجرا:

- والله لست أدرى إلى متى هذا التنافر؟!

فردت صبيحة بدعاء الأنثى التي تريد أن تخبره بأمر لعله يفهم مغزاه:

- إلى أن يتم المؤامرة ويجعلنى أتخلص منك ومن قائد الجيوش

غالب أبى أسماء .

ورد المنصور أبى عامر مستغربا:

- أسماء!!

فقالت صبيحة متظاهرة ببساطة الأمر مخفية ما يعتمل داخلها:

- قل لى أحقا ما يقولون أن خطبت أسماء بنت أبى غالب؟

وكانت المفاجأة تربك الوزير المنتصر ، لكنه تماسك وقال:

- كنت أنتظر المناسبة لأستأذنك فيها يا مولاتى فقد شعرت أن المصحفى يدبر ليفرق بيننا وبين غالب قائد الجيوش فقلت أغلبه بأسماء .

فردت صبيحة بدلال وعتاب:

- تغلبه وتغلبنى بها يا منصور .

رد الوزير:

- حاشا لله يا مولاتى بل أغلب ألسنة السوء التي تلفظ الشائعات على الملكة والمنصور .

فردت صبيحة:

- إذن تريد أن تهجرنا يا ابن أبى عامر!!

ولم يعد هناك من سبيل للف والدوران فرد عليها المنصور قائلا:

- ما يجرؤ المنصور على ذلك أبدا لكن كونى عونا يا مولاتى ولنفسك لنخرس الألسنة إلى الأبد وليتم كل شئ برضاك وبركتك أمام الناس جميعا .

واستطاعت صبيحة أن تكبح جماح قلبها ، وتشرف بنفسها على حفل الزفاف الذي دفعت نفقاته ونفقات ملابس العروس ، ثم توقع

بيدها على عقد القران ، واستطاع ابن أبى عامر أن يرد للمصحفى ما فعله من قبل بضبطه ناهبا خزانة الدولة بعون من الوصية صبيحة وبدأت المحاكمة وأسقط المصحفى من الحجابة وأبعد أبناءه ، وحكم المجلس بعزله ومصادرة أملاكه وسجنه وطرد أقاربه .

خلا بذلك منصب الحاجب ليتولاه ابن أبى عامر تؤيده وتؤازره الملكة الوصية (صبيحة) وأصبحت له الكلمة الأولى ليصبح هو المتصرف في كل أمور الدولة ويسمى نفسه الملك المنصور .

لم تكن صبيحة تدرى أن حبها للمنصور ورفعها لقدره ليعاونها في إدارة شئون الحكم وظنها أن يهواها سوف يجعله سجانها ذات يوم ويغير مقر الحكم ليمنع الخليفة الذي بدأ يشب عن الطوق والوصية من التدخل في شئون الحكم ، وأنشأ مدينة للحكومة ومرافق الدولة أسماها الزاهرة واستطاع أن يقنع صبيحة أن تعزل ولدها في القصر حتى يتم تدريبه وتوجيهه إلى شئون الخلافة والحكم .

ولم يعد المنصور يذهب إلى الملكة "صبيحة" وانشغل بأمور الحكم في مدينته الجديدة فأرسلت إليه تستدعيه لتعرف سبب هجره لها ودار بينهما هذا الحوار الذي بدا عتابا وانتهى حادا .

صبيحة: ماذا يشغلك عنا يا منصور . . وما كان يشغلك عن صبيحة شئ؟ هل نسيت عهد الإخلاص والوفاء؟

المنصور: مازلت عند عهدى وكل ما أفعله من أجل "صبيحة" ودعما لحكم ولدها ، ولكن أعباء الحكم لا تدع لى وقتا .

صبيحة: لعلك تدرك أن أكثر الرجال الذين بلغوا قمة السلطة ملوا من كان سببا في بلوغهم النفوذ والسلطان .

المنصور: لولا المنصور ما بقى ملكك وما استقرت الخلافة في بيت ولدك ، ولقضت الدسائس على حكم العرب والمسلمين في الأندلس .

صبيحة: أنسيت أننى التي جعلتك المنصور؟

المنصور: ما كنت أنكر الفضل عن أهله لكنك لا تنكرين أننى جعلت من الأندلس المفككة دولة موحدة لها جيش يدين للخليفة بالولاء وما ترينه من عز ورخاء بالأندلس ما كان يتم لولا المنصور .

وحاولت "صـ حة" أن تستحث ولدها للخروج إلى شعبه لكنه رفض ، ولم تجد "صبيحة" أمام ذلك الوضع سوى الاستسلام ، وقضت سنوات قضاها المنصور في الجهاد وهي قابعة في قصرها حتى جاءها من يدعوها للقاء المنصور الذي يحتضر ، واهتز قلب الملكة الذي لا يزال ينبض بالحب للمنصور وهرعت إليه ناسية إساءته لها ووقفت إلى جواره تنظر إليه في أسى وهو يحتضر وقد أفسحت زوجته أسماء المكان وهي تدعوها أن تستغفر له ، وأمسكت "صبيحة" بيد المنصور الباردة الساكنة بيدها المرتجفة وهي تقول:

- رحمتك يا رب . . اللهم اعف عنه واغفر له فقد والله عفوت عنه .

وعقب المنصور بصوت ضعيف:

- اغفرى لى يا صبيحة فلم أكن إلا بشرا وما صنعته من أجلك ومن أجل خير الأندلس .

ومات المنصور بين يدى صبيحة التي زفرت زفرة طويلة وقالت:

- ويل للأندلس من بعدك يا منصور .

* * *